في مساء اليوم السابع

علي خيون

في الرابعة عصراً، في الرابعة تماماً من كلّ يوم يدخل بيته كما اعتاد أن يفعل منذُ زمن، حيثُ تستطيعُ زوجتهُ كما يستطيعُ الجيران أن يسمعوا صوت البوّابة الخارجية للمنزل تُفتح، وصوتَ مروحة السيّارة تدور حتى بعد توقّف المحرّك على نحوٍ يوحي بالزحام الذي توقفت فيه والطريق الطويلةِ التي قطعَتْها بين الدائرة والبيت، فتبتسم زوجتهُ وتقولُ لهُ: «إنَّ المروحة تصرُّ على تذكيرك بالطريق المتعبة التي قطعتها».

كان ذلك يجري بروتين متّصل منذُ أعوام.. كانت زوجتهُ تصل قبله بساعة وتنتظرهُ ليتناولا طعام الغداء. لكنّه منذُ يومين راح يدخل فينضو عنه ملابسه، يغسلُ قدميه وذراعيه حتّى المرفق كأنّه يتوضّأ للصلاة، لكنّه لا يصلّي بل يبحث عن القدور الموضوعة فوق الطبّاخ المنضدي عمّا أُعد من طعام، وسرعان ما يزدرد طعامه بعجالةٍ وارتباك، ويمسحُ فمه بالمنشفة ويأوي إلى فراشهِ فيضطجع بلا حراك كالقتيل.

منذُ يومين وهو يفعلُ ذلك صامتاً، وزوجته ترى ذلك، أو ترى جزءاً منه دون أن تنبس ببنت شفة. تتأوّه أحياناً، تجمجم بكلماتٍ غير مفهومة، ترفدهُ بقدح شاي ساخن، لكنّها تجابه صمتهُ بصمت وسكونهُ بسكون حتى إذا جاء موعد مشاهدة التلفزيون، تابعا البرنامج العام مثل كائنين آخرين، لا يتناقشان ولا يتحاوران ولا يسمع أحدُهما صوتاً للآخر.

*

في اليوم الثالث اقتربت منه بعد منتصف اللّيل، اقتربت منه كثيراً، وحين التصقت بهِ، هبّ مذعوراً كمن لُدغ، وتطلّع إلى جسدها شبه العاري بعينين عبث بهما النوم. تطلّع إلى صدرها وساقيها وبطنها بما يوحي بأنّه رجلٌ يريدُ امرأتهُ التي هو غير ملوم إن أتاها باشتياق وهي غير ملومة إنْ مسّته وأيقظته وتبدّت على فراشهِ عارية أو شبه عارية. لكنّها سرعان ما استيأست منهُ حين غيَّر اتّجاه وسادتهِ كمن لم ير شيئاً، وما لبث أن أغضى أو تظاهر بأنّه غطّ في نومٍ عميق.

*

في فجر اليوم الرابع، نهضت قبله وارتدت ملابس أخرى لا تظهر شيئاً مما أظهرته في الليل، وأيقظته بهزّة عنيفة من قدمهِ فتطلّع إلى الساعة ليتأكّد من أنّ الوقت لم يفتهُ للذهاب إلى عمله، ونهض محرّكاً ذراعية وعنقه وهو يتثاءب ومضى إلى الحمّام، فقالت له:

– متى ينطقُ الحجر؟!

لم يجب ومضى يمرِّر آلةَ الحلاقة على بشرتهِ بأناةٍ ورفق، ثم نظّف أسنانهُ ودَعَكَ وجهه بالماء والصابون، وغمر رأسهُ بالمنشفة كأنّهُ لا يريد أن يرى وجه زوجتهِ، ومضى عائداً إلى الغرفة ليرتدي ملابسه.

مضت خلفه، وجلست على حافة السرير تتطلّع إليه في المرآة وهو يزرِّر قميصه. قالت بما يشبه السخرية:

– أين ستفطر؟ لا بدّ أنّ هناك من يهيِّئ لك طعامك؟!

وأضافت:

– هل أُصبت بالخرس، لماذا لم تقل كلمة؟

نهضت حائرة، اقتربت منه وقفت وراءه وقالت بصوتٍ هادئ:

– هاأنذا أطيعك.. وها هي أربعة أيام تمضي من إجازتي فماذا تريد؟

أبنية متطايرة

ادوار الخرّاط في آخر رواياته

رواية إدوار الخرّاط

دار الآداب

وسكتت لحظة ثم قالت:

– كن عاقلاً.. وتذكّر أنّ الشكّ حطّم بيوتاً سعيدة ودمّر نفوساً بريئة.

تأكّد من ربطة عنقه، فقالت بهدوء:

– خذ ربطة العنق الزرقاء فإنّها تلائم ملابسك!

تركها تحدّث نفسها ومضى حتى الباب الخارجي، فركضت خلفه ومرّت أمامهُ وحالت بينه وبين الخروج وقالت محذّرةً:

– سوف تفشل إن تصوّرت أنّك قادرٌ على تحطيم أعصابي بصمتك!

أزاحها عن الباب بقوّة فقالت باستياء:

– سوف تفشل...

ظلّت ترمقه بوجوم حتى ركب سيارته واختفى مسرعاً، فتابعت من مكانها بذهولٍ تام حركات العصافير، تغازلُ بعضها بعضاً على الأشجار.

في الرابعة تماماً، كادت تجنّ، فلم تسمع صوت الباب يُفتح، وتحرّكتْ وراء باب المطبخ بعصبيّة ظاهرة، وتجنّبت النظر إلى العصافير التي اتّخذت من شجرة قرب الباب مكاناً لعبثها الفاضح.. حتى إذا دنت عقارب الساعة من السادسة مساءً، وهبط قرص الشمس حتى صار محاذياً لحافة الباب الخارجي، سمعت صوت المروحة التي تنبئ بوصول الطريق التي قطعتها السيّارة من الدائرة إلى البيت، ولكن أيّة دائرة؟! إنّ هدير المروحة، وزَحْفَ عقارب الساعة، ينبئان بأنّ الطريق لم تكن طريق كلّ يوم، وأن الرجل ضلّ طريقه القديمة وسعى في دروب خفيّة.

قالت له بعد أن فرغ من خلع ملابسه:

– أتريدُ طعاماً؟

فمضى كأنّه لم يسمع سؤالها ودسّ نفسه في الفراش، إلاّ أنّها تصدّتْ له بحزم وسألتهُ:

– أين كنت؟!

لم يجب، فجلست على مقعدٍ قريب وقالت:

– لعلّك رحت تسأل وتتأكّد.. لا بأس.. بودّي أن تسأل وتتأكّد.. إنّني أتحدّاك أن تجد في سلوكي ما يريب.

وفركتْ يداً بيد ثم واصلت:

– أنا لا أنكر أنّني خرجت مع موظف الحسابات.. لا أنكر ذلك ولعلّ هناك من أخبرك بهذا.. بل لقد رأيتَ ذلك حين عاد بي إلى البيت كما تقول، فهل رأيت في جلوسي بجانبه ما يشين؟! ولكن..

دققت النظر للتأكد من أنّه لم ينم وأنّه يستمع إليها جيّداً.. وواصلت:

– ولكن الرّجل كان مؤدّباً.. وهو معروف بسيرته الحسنة مند عُيّن قبل أشهر..

تقلّب في فراشهِ كأنّه تضايق من عبارتها الأخيرة، غير أنّ ذلك شجّعها على أن تستمرّ بإصرار وتدفّق وهدوء:

– هل قالوا لك إنه طلّق زوجته وإنّه يعيش وحيداً في شقّته؟! نعم.. أظن أنّ هذا هو الأمر الذي جعلك تلفّ حبل الشكّ حول عنقي.

وأضافت بتأثّر واضح وشرودٍ تام:

– مسكين فائز.. إنّه وحيد وبيتهُ مهجور، وليس الذنب ذنبه بل ذنب زوجتهِ الغيور التي لم يطق تطفّلها عليه فسرّحها بإحسانٍ كما يقول..

رفس البطانيةَ بقدمهِ وضمّ رأسه بين يديه فانتبهت وقالت مصحّحة:

– في الدائرة يبوح بعضُ الموظّفين بأسرارهم بعضهم إلى بعض.. أشياء تحدث في كلّ الدوائر.. علاقات إنسانية كما يقال..

انتظرت منه ردَّ فعل، أيّ ردّ فعل، ولمّا لم يحر جواباً ولم يأت بأيّة حركة واصلتْ كأنّها تحدّث نفسها:

– لا أدري لماذا ترك كلّ الموظّفين وجاء يرجوني لمساعدتهِ في انتقاء حاجاته من السوق في تلك الإجازة الزمنية التي طلبناها معاً.

ونهضت في عصبية وقالت كأنّها تتذكّر شيئاً:

– أقطعُ لسانَ مَنْ يذكرني بسوء.

وواصلت أمام المرآة كأنّها تخاطب نساءً أمامها:

– لا تلطّخن سمعةَ الأخريات.. فمن كان بيتُه من زجاج ينبغي أن..

توقفت فجأة حين رأتهُ يغادر السرير ويرتدي ملابسه بسرعة ويخرج.

*

في صباح اليوم الخامس من صمته الشامل، سألته مداعبةً وهي تناولهُ الشاي، مستضحكة:

– صيامك يسمّى صيام زكريا... ولكنّ صيام زكريا ثلاثة أيام.

لم يبتسم، فقالت لهُ وهو يضع قطعة الكعك في قدح الشاي حتى تذوب:

– كان لصوم زكريا معنى فما معنى صيامك هذا؟ إنّك تكادُ بصمتك تحطّم روحي كلّها..

وأضافت:

– لم أكن أعرف أنّ للصمت قوّة، ولكن ذلك لن يدوم فسوف تنتهي إجازتي: سبعة أيام لا غير وبعدها ينبغي أن ألتحق بعملي.. هل لديك ملاحظة أو اعتراض؟!

لم يجب، فقالت وقد غيّرت لهجتها:

– لكنّك بعد الأيّام السبعة ينبغي أن تسرِّحني بإحسان..

ترك ما في يده ونهض فقالت بغضب:

– أو تضطر..

تابعتهُ وهو يرتدي ساعته، فقالت:

– لا تتصور أنّني سوف أضجر وأذهب إلى أهلي.. لن أذهب إليهم وعلى ظهري تهمة باطلة.. بل سأظلّ هنا وأرى ما الذي ستفعله بعد الإجازة؟!

وقبل أن يغادر البيت، قالتْ بصوت رقيق:

– لقد اعتذرتُ عما بدر منّي ولن أخرج مع فائز أو مع سواه بعد اليوم.. وأرجو أن لا تصدّق كلّ ما يقال، خذ الحقائق منّي.. فلم أخرج معه كثيراً، إن قالوا أكثر من خمس أو سبع مرّات فهم يكذبون..

اندفع خارجاً، وظلّت في مكانها تفرك يداً بيد حائرةً واجمة، وتجنّبت النظر إلى الشجرة التي قرب الباب، لكنّها نقلت عينيها بين القفص في أعلى المطبخ وبين العصافير المتقافزة فوق الشجرة وهزّت يدها في غموض.

في مساء اليوم السادس عاد متأخّراً خلافاً لعادتهِ اليوميّة، ودخل البيت عند العاشرة مساءً ولاحظت أنّ خطواته لم تكن متّزنة تماماً وعرفت أنّه احتسى الخمر التي تركها منذُ أكثر من عام.

اقتربت منه، انتظرت حتى نضا عنه بدلته وبقي بملابسه الداخلية. كانت تريده، وسوست لها نفسها بأنّه سوف ينسى بفعل الخمر كلّ شيء ويأخذها بأحضانه كما كان يفعل من قبل. اقتربت منه وقالت هامسةً وهي تقبّل كتفهُ:

– هل تريد شيئاً؟

فبوغتت به يدفعها بشدّة. كادت تسقط أرضاً، إلاّ أنّها تماسكت وصاحت بصوتٍ عالٍ:

– لِمَ كلّ هذا؟! ما بك؟! ألا يكفي أنّك عدت إلى السهر والشرب.. مع من كنت؟! أنا التي تحاسبك هذه المرّة..

تطلّع إليها بعينين مطفأتين ووجهٍ شاحب وقال لأوّل مرّة، بعد ستّة أيام من صمتٍ مستمر:

– كنتُ مع فائز..

بهتت وامتقع لونها، وتراجعتْ إلى الوراء كأنّه أطلق باتّجاهها رصاصةً مفاجئة. وأضاف وهو يسقط على الفراش:

– هو الذي طلب حضوري ليضعني أمام أمرٍ فظيع لم يتعرّض له رجلٌ إلاّ إذا كانت لديه امرأة مثلك..

شحب وجهها مثل ليمونة عُصرتْ وتُركتْ أيّاماً. ظلّ كلاهما يحدّق في وجه الآخر بصمت، بصمتٍ عميق، وقالت أخيراً بصوت مرتجف مبلّلٍ بالدموع:

– وهل صدّقت هذا الحقير؟!

فنهض كالمجنون، وراح يضرب وجهها وجسدها كلّه بكفيه وقدميه حتى سقطت بلا حراك كأنّها فارقت الحياة.

جعل يرتدي ملابسه بسرعة وهو في ذروة غضبه وخرج كالمطارَد في ليلٍ بهيم.

*

في اليوم السابع عاد إلى المنزل عند السابعة مساءً، واجتاز بالسيّارة الرواق الخارجي للمنزل.. ترجّل من السيارة فسمع صوت المروحة مافتئ يدور على نحوٍ كريهٍ ممل. التفت حانقاً ضجراً كمن يراقب حيواناً يجري خلفه وليس من سبيل إلى الخلاص منه.

غير أنّ أحداً لم يستقبلهُ، كان الصمت يلفّ المنزل. دنا من المطبخ فرأى زوجته تنحني قرب الطباخ.. وسرعان ما أخذت أنفهُ رائحةٌ كريهة.. التصق بالزجاج ونقرهُ بإصبعهِ فلم تنتبه. لم يكن لديه مفتاحٌ آخر.. ارتاع للمنظر الصامت، تراجع خطوات واندفع كالمجنون نحو الباب فارتدّ خائباً. تراجع خطوات أكثر وقفز مثل رياضي يجتاز حاجزاً فتحطّم الزجاج كلّه وأحسّ بهِ ينغرزُ في جسدهِ الذي اندفع مع الباب وسقط على أرضية المطبخ، بينما ملأت رئتيه رائحةٌ ثقيلة خانقة.

بغداد

هل تعلم؟
– أنّ الآداب لا تعيش إلاّ بدعم القرّاء؟
– وأنّها أضخم سجلّ للأدب العربي المعاصر؟
– وأنّ هناك عدداً متوفّراً من مجموعاتها؟